

طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى (3) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى تَارًا وَقَالَ لِلَّهِ أَكْبَرُ مَا ضَلَّ النَّاسُ سَبِيلَهُ (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِلَّذِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنٌ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنُوكَا عَلَيْهَا وَاهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى (19) فَلَقَاهَا قَادًا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفُ بِسَبْعَيْهَا سَبَرْتَهَا أُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِّئَلَّا تُكَذِّبَ أَبَاتِنَا الْكَابِرَى (23) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَعَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاخْلَعْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا (33) وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَتَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَّا يُوْحَى (38) أَنْ أَقِمْ فِيهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقِمْ فِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِ الْيَمُّ بِالسَّاجِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ (39) وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِيُضَيِّعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَلَعْتَ لِنَفْسِي (41) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ أَبَاتَيْنَا وَلَا نَبِيَّا فِي ذِكْرِي (42) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَعَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَى (45)

تعريف بالسورة تبدأ هذه السورة وتختتم خطابا للرسول [ص] ببيان وظيفته وحدود تكاليفه . . إنها ليست شقوة كتبت عليه , وليست عناء يعذب به . إنما هي الدعوة والتذكرة , وهي التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره . المهيم على ظاهر الكون وباطنه , الخبير بظواهر القلوب وخوافيها . الذي تعنوا له الجباه , ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم . . فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ; ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر , مفصلة مطولة ; وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى - وموقف الجدل بين موسى وفرعون . وموقف المباراة بين موسى والسحرة . . وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه , وقال له ولأخيه : (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) . .

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة , تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته , وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملامأ الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائعون إلى الجنة , ويذهب العصاة إلى النار . تصديقا لما قيل لأبيهم آدم , وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان !

ومن ثم يمضي السياق في هذه السورة في شوطين اثنين: الشوط الأول يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول [ص] (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . . .) تتبعه قصة موسى نموذا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته .

والشوط الثاني يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله . . ظل علوي جليل , تخشع له القلوب , وتسكن له النفوس , وتعنو له الجباه . . إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى , في تلك المناجاة الطويلة ; والليل ساكن وموسى وحيد , والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل . . وهو الظل الذي يخلعه تجلي القيوم في موقف الحشر العظيم: (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) . . (وعنت الوجوه للحي القيوم) . .

والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا .

الدرس الأول: 1 - 8 إثبات القرآن والسعادة به وتعريف على الله

(طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى).

مطلع رخي ندي . يبدأ بالحروف المقطعة: طا . ها للتنبيه إلى أن هذه السورة . كهذا القرآن - مؤلفة من مثل هذه الحروف على نحو ما أوردنا في مطالع السور . ويختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة , ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك .

يتلو هذين الحرفين حديث عن القرآن - كما هو الحال في السور التي تبدأ بالحروف المقطعة - في صورة خطاب إلى الرسول [ص]:

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى). . ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدي إلى شقائك به أو بسببه . ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعب به حتى يجاوز ذلك طاقتك , ويشق عليك ; فهو ميسر للذكر , لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر , ولا يكلفك إلا ما في وسعك , ولا يفرض عليك إلا ما في طوقك والتعب به في حدود الطاقة نعمة لا شقوة , وفرصة للاتصال بالملأ الأعلى , واستمداد القوة والطمأنينة , والشعور بالرضى والأنس والوصول . .

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به . فلست مكلفا أن تحملهم على الإيمان حملا ; ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ; وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار:

(إلا تذكرة لمن يخشى).

والذي يخشى يتذكر حين يذكر , ويتقي ربه فيستغفر . وعند هذا تنتهي وظيفة الرسول [ص]

- فلا يكلف فتح مغاليق القلوب , والسيطرة على الأفئدة والنفوس . إنما ذلك إلى الله الذي أنزل هذا القرآن . وهو المهيم على الكون كله , المحيط بخفايا القلوب والأسرار: (تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السماوات وما في

الدرس الثاني: تقديم لقصة موسى في سورة طه

ثم يقص الله على رسوله حديث موسى , نموذجا لرعايته للمختارين لحمل دعوته: وقصة موسى هي أكثر قصص المرسلين ورودا في القرآن . وهي تعرض في حلقات تناسب موضوع السورة التي تعرض فيها وجوها وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة . وسورة المائدة . وسورة الأعراف . وسورة يونس . وسورة الإسراء . وسورة الكهف . . وذلك غير الإشارات إليها في سور أخرى .

وما جاء منها في المائدة كان حلقة واحدة: حلقة وقوف بني إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين . وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة: حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة . .

فأما في البقرة والأعراف ويونس وفي هذه السورة - طه - فقد وردت منها حلقات كثيرة . ولكن هذه الحلقات تختلف في سورة عنها في الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة , كما يختلف الجانب الذي تعرض منه تنسيقا له مع اتجاه السورة التي يعرض فيها .

في البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه في الملأ الأعلى , وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ما غفر له . . فجاءت قصة موسى وبني إسرائيل تذكيرا لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه . واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم وإطعامهم المن والسلوى , وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده , ثم غفرانه لهم . وعهده إليهم تحت الجبل . ثم عدوانهم في السبت . وقصة البقرة .

وفي الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى - عليه السلام - فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة , وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل . وخاتمة فرعون وملئه المكذبين . ثم ما كان من بني إسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى . وتنتهي القصة بإعلان فيها وراثة رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبي الأمي .

وفي يونس سبقها عرض مصارع المكذبين . فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة , وعرض مشهد السحرة , ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل .

أما هنا في طه . فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفاهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته . فجاءت القصة مظلمة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة ; وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام وتثبيته وتأييده ; وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة , فقد كانت ترافقه في طفولته , فتحرسه وتعهده: (والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني). .

فلنأخذ في تتبع حلقات القصة كما وردت في السياق .

(وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارا , لعلني آتيكم منها بقبس , أو أجد على النار هدى). .

الدرس الثاني: 9 - 16 خطاب الله لموسى عن النار والألوهية والآخرة والرسالة

(وهل أتاك حديث موسى ?) وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداية لمن اصطفاه ? . .

فها هو ذا موسى - عليه السلام - في الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطورها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبي الله شعيب , على أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ثماني سنوات أو عشرا . والأرجح أنه وفى عشرا ; ثم خطر له أن يفارق شعيبا وأن يستقل بنفسه وبزوجه , ويعود إلى البلد الذي نشأ فيه , والذي فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره .

لماذا عاد . وقد خرج من مصر طريدا . قتل قبطيا فيها حين رآه يقتتل مع إسرائيلي , وغادر مصر هاربا وبنو إسرائيل فيها يسامون العذاب ألوانا ? حيث وجد الأمن والطمأنينة في مدين إلى جوار شعيب صهره الذي آواه وزوجه إحدى ابنتيه ?

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستارا لما تهيئه لموسى من أدوار . . وهكذا نحن في هذه الحياة نتحرك . تحركنا أشواق وهواتف , ومطامح ومطامع , وآلام وآمال . . وإن هي إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة , والستار الذي تراه العيون لليد التي لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار . يد المدبر المهيمن العزيز القهار . .

وهكذا عاد موسى . وهكذا ضل طريقه في الصحراء ومعه زوجته وقد يكون معهما خادم . ضل طريقه والليل مظلم , والمناهة واسعة . نعرف هذا من قوله لأهله: (امكثوا إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى). . فأهل البادية يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض , ليراه الساري في الصحراء , فتكشف له عن الطريق , أو يجد عندها القرى والضياقة ومن يهديه إلى الطريق .

ولقد رأى موسى النار في الفلاة . فاستبشر . وذهب ليأتي منها بقبس يستدفئ به أهله , فالليلة باردة وليالي الصحراء باردة قارة . أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق ; أو يهتدي على ضوءها إلى الطريق .

لقد ذهب يطلب قبسا من النار ; ويطلب هاديا في السرى . . ولكنه وجد المفاجأة الكبرى . إنها النار التي تدفئ . لا الأجسام ولكن الأرواح . النار التي تهدي لا في السرى ولكن في الرحلة الكبرى:

فلما أتاها نودي:يا موسى إني أنا ربك . فاخلع نعليك . إنك بالوادي المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا , فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . .

إن القلب ليحف , وإن الكيان ليرتجف . وهو يتصور - مجرد تصور - ذلك المشهد . . موسى فريد في تلك الفلاة . والليل دامس , والظلام شامل , والصمت مخيم . وهو ذاهب يلتمس النار التي أنسها من جانب الطور . ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء: إني أنا ربك فاخلع نعليك . إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك . . .

إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذي لا تدركه الأبصار . الجلال الذي تتضاءل في ظله الأرض والسماوات . ويتلقى . يتلقى ذلك النداء العلوي بالكيان البشري . . فكيف ? كيف لولا لطف الله ?

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كلها وتكبر ممثلة في موسى - عليه السلام - فبحسب الكيان البشري أن يطبق التلقي من ذلك الفيض لحظة . وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد لمثل هذا الاتصال على نحو من الأنحاء . . كيف ? لا ندري كيف ! فالعقل البشري ليس هنا ليدرك ويحكم , إنما قصاره أن يقف مبهورا يشهد ويؤمن !

(فلما أتاها نودي يا موسى:إني أنا ربك . .)نودي بهذا البناء للمجهول . فما يمكن تحديد مصدرالنداء ولا اتجاهه . ولا تعيين صورته ولا كلفيته . ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه . . نودي بطريقة ما فتلقى بطريقة ما . فذلك من أمر الله الذي نؤمن بوقوعه , ولا نسأل عن كلفيته , لأن كلفيته وراء مدارك البشر وتصورات الإنسان

يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى . . إنك في الحضرة العلوية . فتجرد بقدميك . وفي الوادي الذي تتجلى عليه الطلعة المقدسة , فلا تطأه بنعليك .

(وأنا اخترتك). . . فيا للتكريم ! يا للتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار . يختار عبدا من العبيد هو فرد من جموع الجموع . . تعيش على كوكب من الكواكب هو ذرة في مجموعة . المجموعة هي ذرة في الكون الكبير الذي قال له الله:كن . . فكان ! ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان !

وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار , والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه , يجيء التنبيه للتلقي: (فاستمع لما يوحى). . .

وبلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة:الاعتقاد بالوحدانية , والتوجه بالعبادة , والإيمان بالساعة ; وهي أسس رسالة الله الواحدة:

(إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى). . .

فأما الألوهية الواحدة فهي قوام العقيدة . والله في ندائه لموسى - عليه السلام - يؤكد بها بكل المؤكدات:بالإثبات المؤكد . (إني أنا الله)وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء: لا إله إلا أنا الأولى لإثبات الألوهية لله , والثانية لنفيها عن سواه . . وعلى

الألوهية تترتب العبادة ; والعبادة تشمل التوجه لله في كل نشاط الحياة ; ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة: (وأقم الصلاة لذكرى) لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة , وأكمل وسيلة من وسائل الذكر , لأنها تتمحض لهذه الغاية , وتتجرد من كل الملابس الأخرى ; وتتهياً فيها النفس لهذا الغرض وحده , وتتجمع للاتصال بالله .

فأما الساعة فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل , الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ; وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق . . والله سبحانه يؤكد مجيئها: (إن الساعة آتية) وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم . . والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي . فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم - وهم بهذه الفطرة - لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم . فوراء المجهول يجرون . فيحذرون ويأملون , ويجربون ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم ; ويرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق ; ويدعون في الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا . . وتعلق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد , يحفظهم من الشرود , فهم لا يدرون متى تأتي الساعة , فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحت فطرته واستقام . فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل , فيسقط ومصيره إلى الردى:

(فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) . .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذي ينشئ الكذب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها , ولا يتم فيها العدل تمامه , وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان , والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال .

الدرس الثالث: 17 - 44 تكليف موسى بالذهاب إلى فرعون وقصة الآيات وتذكيره بنعم الله عليه

هذه هي الوهلة الأولى للنداء العلوي الذي تجاوزت به جنبات الوجود ; وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد . ولا بد أن موسى قد نسي نفسه ونسي ما جاء من أجله , ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه ; وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه . وبينما هو مستغرق فيما هو فيه , ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه , إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب:

(وما تلك بيمينك يا موسى ؟) . .

إنها عصاه . ولكن أين هو من عصاه ؟ إنما يتذكر فيجيب:

(قال: هي عصاي , أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) . .

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يده . إنما كان عما في يمينه . ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل , فهي واضحة , إنما عن وظيفتها معه . فأجاب . .

ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا: أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم - وقد كان يرعى الغنم لشعيب . وقيل: إنه ساق معه في عودته

قطيعا منها كان من نصيبه . وأن يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هي ذي القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر له على بال , تمهيدا لتكليفه بالمهمة الكبرى:

(قال: ألقها يا موسى . فألقاها . فإذا هي حية تسعى . قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى):

ووقعت المعجزة الحارقة التي تقع في كل لحظة ; ولكن الناس لا ينتبهون إليها . وقعت معجزة الحياة . فإذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ; ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك إن الإنسان أسير حواسه , وأسير تجاربه , فلا يبعد كثيرا في تصوراته عما تدركه حواسه . وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى , ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خفية قلما يلتفت إليها . وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها في حسه , فيمر عليها غافلا أو ناسيا .

وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف:(قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى)ونردها عصا .

والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولى مدبرا ولم يعقب . إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى - عليه السلام - من خوف: ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة , فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيدا .

واطمأن موسى والتقط الحية , فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا ! . . ووقعت المعجزة في صورتها الأخرى . صورة سلب الحياة من الحي , فإذا هو جامد ميت , كما كان قبل أن تدركه المعجزة الأولى . . وصدر الأمر العلوي مرة أخرى إلى عبده موسى:

(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى) . .

ووضع موسى يده تحت إبطه . . والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرقة وطلاقة وخفة في هذا الموقف الممّجح الطليق من ربة الأرض وثقله الجسم لتخرج بيضاء لا عن مرض أو آفة . ولكن: (آية أخرى) مع آية العصا . (لنريك من آياتنا الكبرى) فتشهد وقوعها بنفسك تحت بصرك وحسك . فتطمئن للنهوض بالتبعية الكبرى:

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) . .

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم أنه منتدب لهذه المهمة الضخمة . . وإنه ليعرف من هو فرعون: فقد ربي في قصره . وشهد طغيانه وجبروته . وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب ونكال . . وهو اللحظة في حضرة ربه . يحس الرضى والتكريم والحفاوة . فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة ; ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة:

(قال:رب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري . واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي .
واجعل لي وزيرا من أهلي , هارون أخي . اشدد به أزري , وأشركه في أمري . كي
نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا) . .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره . . وانشرح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة
 , ويحيل عناءه لذة ; ويجعله دافعا للحياة لا عبئا يثقل خطى الحياة .

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره . . وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح . وإلا فماذا
يملك الإنسان بدون هذا التيسير ؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق
طويل وشائك ومجهول ؟!

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله . . وقد روي أنه كانت بلسانه حبسة
والأرجح أن هذا هو الذي عناه . ويؤيده ما ورد في سورة أخرى من قوله: (وأخي هارون
هو أفصح مني لسانا). وقد دعا ربه في أول الأمر دعاء شاملا بشرح الصدر وتيسير الأمر
 . ثم أخذ يحدد ويفصل بعض ما يعينه على أمره وييسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله . هارون أخيه . فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات
الجنان وهذوء الأعصاب , وكان موسى - عليه السلام - انفعاليا حاد الطبع سريع الانفعال
 . فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو
مقدم عليه .

والأمر الجليل الذي هو مقدم عليه يحتاج إلى التسييح الكثير والذكر الكثير والاتصال
الكثير . فموسى - عليه السلام - يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ويحل عقدة
من لسانه ويعينه بوزير من أهله . . كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ; ولكن ليتخذ
ذلك كله مساعدا له ولأخيه على التسييح الكثير والذكر الكثير والتلقي الكثير من السميع
البصير . (إنك كنت بنا بصيرا) . . تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا
إلى العون والتدبير . .

لقد أطال موسى سؤله , وبسط حاجته , وكشف عن ضعفه , وطلب العون والتيسير
والاتصال الكثير . وربّه يسمع له , وهو ضعيف في حضرته , ناداه وناجاه . فها هو ذا
الكريم المنان لا يخجل ضيفه , ولا يرد سائله , ولا يبطله عليه بالإجابة الكاملة:

(قال:قد أوتيت سؤلك يا موسى):

هكذا مرة واحدة , في كلمة واحدة . فيها إجمال يغني عن التفصيل . وفيها إنجاز لا وعد
ولا تأجيل . . كل ما سأله أعطيته . أعطيته فعلا . لا تعطاه ولاستعطاه ؟ وفيها مع
الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه: (يا موسى)وأي تكريم أكبر من أن يذكر
الكبير المتعال اسم عبد من العباد ؟

وإلى هنا كفاية وفضل من التكريم والعطف والإيناس . وقد طال التجلي ; وطال النجاء ;
وأجيب السؤال وقضيت الحاجة . . ولكن فضل الله لا خازن له , ورحمة الله لا ممسك
لها . فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه , فيستبقه في حضرته , ويمد في
نجائه وهو يذكره بسابق نعمته , ليزيده اطمئنانا وأنسا بموصول رحمته وقديم رعايته .
وكل لحظة تمر وهو في هذا المقام الوضيء هي متاع ونعمى وزاد ورصيد .

ولقد مننا عليك مرة أخرى . إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم . فليلقه اليم بالساحل , يأخذه عدو لي وعدو له . وألقيت عليك محبة مني , ولتصنع على عيني . إذ تمشي أختك فتقول: هل أدلكم على من يكفله ? فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا , فلبيت سنين في أهل مدين . ثم جئت على قدر يا موسى . واصطنعتك لنفسى

إن موسى - عليه السلام - ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار . إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان . إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ; ثم مع قومه بني إسرائيل وقد أذلهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم , وأضعف استعدادهم للمهمة التي هم منتدبون لها بعد الخلاص . فربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلا من التهيؤ والاستعداد . وأنه لم يرسل إلا بعد التهيئة والإعداد . وأنه صنع على عين الله منذ زمان , ودرب على المشاق وهو طفل رضيع , ورافقه العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف . وكان تحت سلطان فرعون وفي متناوله وهو مجرد من كل عدة ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون , لأن يد القدرة كانت تسنده , وعين القدرة كانت ترعاه . في كل خطاه . فلا عليه اليوم من فرعون , وقد بلغ أشده . وربّه معه . قد اصطنعه لنفسه , واستخلصه واصطفاه .

(ولقد مننا عليك مرة أخرى). . فالمنة قديمة ممتدة مطردة , سائرة في طريقها معك منذ زمان . فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن .

لقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى , وألهمناهم ما يلهم في مثل حالها . ذلك الإلهام:

(أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل). .

حركات كلها عنف وكلها خشونة . . قذف في التابوت بالطفل . وقذف في اليم بالتابوت . وإلقاء للتابوت على الساحل . . ثم ماذا ? أين يذهب التابوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف في اليم الملقى به على الساحل . من يتسلمه ? (عدو لي وعدو له).

وفي زحمة هذه المخاوف كلها . وبعد تلك الصدمات كلها . ماذا ? ما الذي حدث للطفل الضعيف المجرد من كل قوة ? ما الذي جرى للتابوت الصغير المجرد من كل وقاية ?

(وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني)!!!

يا للقدرة القادرة التي تجعل من المحبة الهينة اللينة درعا تتكسر عليها الضربات وتتحطم عليه الأمواج . وتعجز قوى الشر والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء ; ولو كان طفلا رضيعا لا يصول ولا يجول بل لا يملك أن يقول . .

إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد . مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التي تتربص بالطفل الصغير , والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابس وظروف . . والرحمة اللينة اللطيفة تحرسه من المخاوف , وتقيه من الشدائد وتلفه من الخشونة , ممثلة في المحبة لا في صيال أو نزال: (ولتصنع على عيني). . وما من شرح يمكن أن يضيف شيئا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب: (ولتصنع على عيني) وكيف يصف لسان بشري , خلقا يصنع على عين الله ? إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه . . إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية . فكيف بمن

يصنع صنعا على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه .

ولتصنع على عيني . تحت عين فرعون - عدوك وعدوي - وفي متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مدافع . ولكن عينه لا تمتد إليك بالشر لأنني أقيت عليك محبة مني . وبده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عيني .

ولم أحطك في قصر فرعون , بالرعاية والحماية وأدع أمك في بيتها للقلق والخوف . بل جمعتك بها وجمعتها بك :

(إذ تمشي أختك فتقول: هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) . .

وكان ذلك من تدبير الله إذ جعل الطفل لا يقبل ثدي المرضعات . وفرعون وزوجه وقد تبنيا الطفل الذي ألقاه اليم بالساحل - مما لا يفصله السياق كما يفصله في موضع آخر - يبحثان له عن مرضع . فيتسامع الناس وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم: هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجيء لهم بأمه فيلقم ثديها . وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمّه التي سمعت الإلهام فقذفت بفلذة كبدها في التابوت , وقذفت بالتابوت في اليم , فألقاه اليم بالساحل . ليأخذه عدو لله وله , فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف , وتكون النجاة من فرعون الذي كان يذبح أطفال بني إسرائيل . بإلقائه بين يدي فرعون بلا حارس ولا معين !

ومنة أخرى: (وقتل نفسا فنجيناك من الغم , وفتناك فتونا فليثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى . واصطنعتك لنفسى) . .

ذلك حين كبر وشب في قصر فرعون , ثم نزل المدينة يوما فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر مصري , فاستعانه الإسرائيلي فوكز المصري بيده فخر صريعا . ولم يكن ينوي قتله إنما كان ينوي دفعه . فامتلات نفسه بالغم على هذه الفعلة - وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته ; وتخرج ضميره وتأثم من اندفاعه . . فربه يذكره هنا بنعمته عليه , إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم . ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد ; فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص ؟ وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن ; وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم , وهو الذي تربى في قصر أعظم ملوك الأرض , وأكثرهم نرفا ومتاعا وزينة . .

وفي الوقت المقدر . عندما نضج واستعد , وابتلى فثبت وصبر ; وامتحن فجاز الامتحان . وتهيات الظروف كذلك والأحوال في مصر , وبلغ العذاب ببني إسرائيل مداه . .

في ذلك الوقت المقدر في علم الله جيء بموسى من أرض مدين , وهو يظن أنه هو جاء: (فليثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى).

جئت في الوقت الذي قدرته لمجيئك . . (واصطنعتك لنفسى) خالصا مستخلصا ممحضا لي ولرسالتي ودعوتي . . ليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا . إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها واصطنعتك

لتؤديها . فما لك في نفسك شيء . وما لأهلك منك شيء , وما لأحد فيك شيء . فامض لما اصطنعتك له:

(اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له:قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) . .

اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتي وقد شهد منها آية العصا وآية اليد - ولا تنيا في ذكرى فهو عدتكما وسلاحكما وسندكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد . . اذهبا إلى فرعون . وقد حفظتك من شره من قبل . وأنت طفل وقد قذفت في التابوت , فقذفت التابوت في اليم , فألقاه اليم بالساحل , فلم تضرك هذه الخشونة , ولم تؤذك هذه المخاوف . فالآن أنت معد مهياً , ومعك أخوك . فلا عليك وقد نجوت مما هو أشد , في ظروف أسوأ وأعنف .

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا (فقولا له قولا لينا) فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ; ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة . ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان .

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته , راجيين أن يتذكر ويخشى . فالداعية الذي يئس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة , ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار .

وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون . ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه . والله يحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم . وهو عالم بأنه سيكون . فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي في درجة سواء .

الدرس الرابع: 45 - 48 موسى وهارون يدعوان فرعون

وإلى هنا كان الخطاب لموسى - عليه السلام - وكان المشهد هو مشهد المناجاة في الفلاة . وهنا يطوي السياق المسافات والأبعاد والأزمان , فإذا هارون مع موسى . وإذا هما معا يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون , ومن التسرع في أذاه , ومن طغيانه إذا دعواه: (قالا:ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال:لا تخافا إني معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا:إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك . والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى).

وهارون لم يكن مع موسى قطعاً في موقف المناجاة الطويل - الذي تفضل المنعم فيه على عبده , فأطال له فيه النجاء , وبسط له في القول , وأوسع له في السؤال والجواب - فردهما معا بقولهما: (إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) لم يكن في موقف المناجاة . إنما هو السياق القرآني يطوي الزمان والمكان , ويترك فجوات بين مشاهد القصص , تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس .

ولقد اجتمع موسى وهارون عليهما السلام إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور . وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه في دعوة فرعون ثم هما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما: (قالا:ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) . .

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى , والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى . وفرعون الجبار يومئذ لا يتخرج من أحدهما أو كليهما .

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقًا ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)
قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا
وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (53)
فأما موسى - عليه السلام - فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى:(قال:ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى). . ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها . ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها ; وأمهده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها . وثم هنا ليست للتراخي الزمني . فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها , وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته . إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته ; فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلا . .

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى - عليه السلام - يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود:هبة الوجود لكل موجود . . وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها . وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها . . وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته - في حدود ما يطيق - في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير . من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام , ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان .

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا , والخلائق والأحياء ; وكل ذرة فيه تنبض , وكل خلية فيه تحيا , وكل حي فيه يتحرك , وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى . . وكلها تعمل منفردة ومجموعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات !

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته , تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها , داخل حدود الناموس العام , في توافق وانتظام .

وكل كائن بمفرده - ودعك من الكون الكبير - يقف علم الإنسان وجهده قاصرا محدودا في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه . دراستها مجرد دراسة لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها , فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان . وهو خلق من خلق الله . . وهبه وجوده , على الهيئة التي وجد بها ? للوظيفة التي خلق لها , كأي شيء من هاته الأشياء !

إلا أنه للإله الواحد . . ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . .

وثنى فرعون بسؤال آخر:

(قال:فما بال القرون الأولى?).

ما شأن القرون التي مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا ؟

(قال: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى). .

بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان , الخافي عن العيان , إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء ولا ينسى شيئا . فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله . في ماضيها وفي مستقبلها . والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله .

ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان . فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون , المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الوفور والزرع والأنعام:

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)

(الذي جعل لكم الأرض مهذا , وسلك لكم فيها سبلا , وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن في ذلك لآيات لأولي النهي). .

والأرض كلها مهد للبشر في كل مكان وزمان . مهد كمهد الطفل . وما البشر إلا أطفال هذه الأرض . يضمهم حضنها ويغذوهم درها ! وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة . جعلها الخالق المدير كذلك يوم أعطى كل شيء خلقه . فأعطى هذه الأرض خلقها على الهيئة التي خلقت بها صالحة للحياة التي قدرها فيها ; وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التي خلقهم بها صالحين للحياة في هذه الأرض التي مهدها لهم وجعلها مهدهم . . المعنيان متقاربان متصلان .

وصورة المهد وصفة التمهيد لا تبدو في بقعة من الأرض كما تبدو في مصر . ذلك الوادي الخصيب الأخضر السهل الممهد الذي لا يحوج أهله إلا إلى أيسر الكد في زرعه وجناه . وكأنما هو المهد الحاني على الطفل يضمه ويرعاه .

والخالق المدير الذي جعل الأرض مهذا , شق للبشر فيها طرقا وأنزل من السماء ماء . ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض - ومنها نهر النيل القريب من فرعون - فيخرج النبات أزواجا من أجناس كثيرة . ومصر أظهر نموذج لأخراج النبات لطعام الإنسان ورعي الحيوان .

وقد شاء الخالق المدير أن يكون النبات أزواجا كسائر الأحياء . وهي ظاهرة مطردة في الأحياء كلها . والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير , وخلايا التانيث في النبتة الواحدة وأحيانا يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية . وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع . . (إن في ذلك لآيات لأولي النهي). . وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدير الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . .

ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جل وعلا:

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى).

من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهذا وسلكنا لكم فيها سبلا وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا به أزواجا من نبات شتى , للأكل والمرعى . . من هذه الأرض خلقناكم , وفي هذه الأرض نعيدكم , ومنها نخرجكم بعد موتكم .

والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض . عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالا . ومن زرعها يأكل , ومن مائها يشرب , ومن هوائها يتنفس . وهو ابنها وهي له مهد . وإليها يعود جثة تطويعها الأرض , ورفاتا يختلط بترابها , وغازا يختلط بهوائها . ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى , كما خلق في النشأة الأولى .

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر , الذي يتسامى إلى مقام الربوبية ; وهو من هذه الأرض وإليها ! وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها . (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) أريناه الآيات الكونية التي وجهه إليها موسى - عليه السلام - فيما حوله , وأيتي العصا واليد يجملهما هنا لأنهما بعض آيات الله , وما في الكون منها أكبر وأبقى . لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون , فهذا مفهوم ضمنا , إنما يفصل رده على الآيات كلها فنفهم أنه يشير إليهما . .

(قال: أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعد

قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحًى (59)

لا نخلفه نحن ولا أنت , مكانا سوى . قال: موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى).

وهكذا لم يمض فرعون في الجدل , لأن حجة موسى - عليه السلام - فيه واضحة وسلطانه فيه قوي , وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون , ومن آياته الخاصة معه . إنما لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذي يجعل العصا حية تسعى , ويحيل اليد بيضاء من غير سوء . وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر ; وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر . . وهو تخيل لا حقيقة , وخداع للبصر والحواس , قد يصل إلى خداع الإحساس , فينشئ فيه آثارا محسوسة كآثار الحقيقة . كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها , أو في صورة غير صورتها . وما يشاهد من تأثير المسحور أحيانا تأثيرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة . . وليس من هذا النوع آيتا موسى . إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقا . تحويلا وقتيا أو دائما .

قال: أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ .

ويظهر إن استعباد بني إسرائيل كان إجراء سياسيا خوفا من تكاثرهم وغلبيتهم . وفي سبيل الملك والحكم لا يتخرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية وعن الخلق والشرف والضمير . ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل ويذلهم بقتل المواليد الذكور . واستبقاء الإناث ؛ وتسخير الكبار في الشاق المهلك من الأعمال . . فلما قال له موسى وهارون: أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . قال: (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟) لأن إطلاق بني إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض .

وإذا كان موسى يطلب إطلاق بني إسرائيل لهذا الغرض ، وكل ما يقدمه هو عمل من أعمال السحر ، فما أسهل الرد عليه: (فلنأتينك بسحر مثله) . . وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي وراءها هدفا من أهداف هذه الأرض ؛ وإنها ليست سوى ستار للملك والحكم . . ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق . فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهريا . . سحر ناتى بسحر مثله ! كلام ناتى بكلام من نوعه ! صلاح نتظاهر بالصلاح ! عمل طيب نرائي بعمل طيب ! ولا يدركون أن للعقائد رصيда من الإيمان ، ورصيда من عون الله ؛ فهي تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال !

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة . . وترك له اختيار ذلك الموعد: للتحدي: (فاجعل بيننا وبينك موعدا) وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي (لا نخلفه نحن ولا أنت). وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف: (مكانا سوى) مبالغة في التحدي !

وقبل موسي - عليه السلام - تحدي فرعون له ؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم ، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة ؛ (قال: موعدكم يوم الزينة). وطلب أن يجمع الناس ضحى ، ليكون المكان مكشوفاً والوقت ضاحيا . فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا في يوم العيد . لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت . ولا في الظهر فقد يعوقهم الحر ، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية . . !!

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان في الميدان . .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَّا رُغْوَا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ أَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ مُنَادٍ وَإِنَّا بِأَنْتَ لَنَاقٍ (65)

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة:

الدرس السادس: 60 - 79 موجز الأحداث بين إيمان السحرة وغرق فرعون

(فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) . .

ويجمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه , وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة , وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه . . . يجمله في جملة: فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات: ذهاب فرعون , وجمع كيده , والإتيان به .

ورأى موسى - عليه السلام - قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة , وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله , لعلمهم يشوبون إلى الهدى , ويدعون التحدي بالسكر والسكر افتراء:

قال لهم موسى: ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب , وقد خاب من افترى .

والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها . ويبدو أن هذا الذي كان ; فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة , فتلجلج في الأمر ; وأخذ المصريون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى:

(فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى) . .

وجعل بعضهم يحمس بعضا , وراحوا يهيجون في المترددين الخوف من موسى وهارون , اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ; مما يوجب مواجهتهما يدا واحدة بلا تردد ولا نزاع . واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح:

(قالوا: إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا . وقد أفلح اليوم من استعلى) . .

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة , كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم , فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم , وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة . وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع . وموسى وأخوه رجلا ناثان , والسحرة كثيرون , ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله . . ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى . .

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر , وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون . فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ; ويجمع كيده ثم يأتي , ويحشر السحرة ويجمع الناس ; ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ? وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ? وموسى فرد من بني إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ? . . إنها الهيبة التي ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى . .

وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة توقع الارتباك في صفوف السحرة المدربين , فتحوجهم إلى التناحي سرا ; وإلى تجسيم الخطر , واستثارة الهمم , والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات .

ثم أقدموا:

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجِسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70)

(قالوا: يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى). .

وهي دعوة الميدان إلى النزال . يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدي .

(قال: بل ألقوا). .

فقبل التحدي , وترك لهم فرصة البدء , واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة . . ولكن ماذا ? إنه لسحر عظيم فيما يبدو , وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى:

(فإذا حبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى),

والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى , ومعه ربه يسمع ويرى . وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى , حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى:

قلنا: لا تخف . إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا . إن ما صنعوا كيد ساحر , ولا يفلح الساحر حيث أتى . .

لا تخف إنك أنت الأعلى . فمعك الحق ومعهم الباطل . معك العقيدة ومعهم الحرفة . معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة . أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا .

لا تخف (وألق ما في يمينك) بهذا التنكير للتضخيم (تلقف ما صنعوا). فهو سحر من تدبير ساحر وعمله . والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار , لأنه يتبع تخيلا وبصنع تخيلا ; ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية . شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق . وقد يبدو باطله ضخما فخما , مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبخر ولا تتناول ولا تتظاهر ; ولكنها تدمغ الباطل في النهاية , فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه , فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى . . ووقعت المفاجأة الكبرى . والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها , والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضا ويدفع بعضهم بعضا . والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى .

وبخيل إليه - وهو الرسول - أن حبالهم وعصيتهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم , لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه ; ولا يكفي النطق للإفضاء به:

(فألقى السحرة سجدا . قالوا: آمنا برب هارون وموسى). .

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله . وتصادف "الزر الصغير" فينبعث النور ويشرق الظلام . إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان .

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف ؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب ؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا , ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم , نسوا أن الله هو مقلب القلوب ; وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان:

(قال:آمنتُم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر , فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل , ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى).

(آمنتُم له قبل أن آذن لكم). . قوله الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون - وقد لمس الإيمان

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّهَا آمَنَّا بَرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) قلوبهم - أن يدفعوه عنها , والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

(إنه لكبيركم الذي علمكم السحر). . فذلك سر الاستسلام في نظره , لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون . ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال .

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ; ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح: (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف , ولأصلبنكم في جذوع النخل).

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة . قوة الوحوش في الغابة . القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال , ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى)!

ولكنه كان قد فات الأوان . كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل . فإذا هي قوية قويمة . وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة . وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة . وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضئيلة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل . ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه:

(قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا , فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا برينا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر , والله خير وأبقى).

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون . فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة , وترخص ملكه وزخرفته وجاهه وسلطانه:

(قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا .) فهي علينا أعز وأعلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى . (فاقض ما أنت قاض) ودونك وما تملكه لنا في الأرض . (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا). فسلطانك مقيد بها , وما لك من سلطان علينا في غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا , وما أهون الحياة الدنيا . وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله , ويأمل في الحياة الخالدة أبدا . (إنا آمنا برينا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصيانا , فلعل بإيماننا برينا يغفر لنا خطايانا . (والله خير وأبقى) خير قسمة وجوارا , وأبقى مغنما وجزاء . إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى . . .

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي:

إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأت مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى . فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرما هي أشد عذابا وأدوم (فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) فلا هو ميت فيستريح , ولا هو حي فيتمتع . إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة . . وفي الجانب الآخر الدرجات العلى . . جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار (وذلك جزاء من تزكى) وتطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر , وواجهته بكلمة الإيمان القوية . وباستعلاء الإيمان الواثق . وتحذير الإيمان الناصع . وبرجاء الإيمان العميق .

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى (77) فَاتَّبِعْهُمْ فَرْعَوْنَ يَجُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى (79) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَم مِّنْ عَذُوكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى (80)
الأرض , وعلى الطمع , في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة .

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود , بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة . فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ; وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف ; وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب , والتهديد والوعيد . فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال , والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود . والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ; وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن . . إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها الواقعية . فاما إذا ظل الإيمان مظهرًا لم يتجسم في القلب , والحق شعارًا لا ينبع من الضمير , فإن الطغيان والباطل قد يغلبان , لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان . . يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ; فتصبح أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان . . وهذا هو الذي كان في موقف موسى - عليه السلام - من السحر والسحرة . وفي موقف السحرة من فرعون ومثله . ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة:

(ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي , فاضرب لهم طريقًا في البحر يبسا , لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم , وأضل فرعون قومه وما هدى) . .

ولا يذكر السياق هنا ما الذي كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون . ولا كيف تصرف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه , المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها . إنما يعقب بهذا المشهد . مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبي بالنصر الواقعي . وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين كاملة حاسمة . . ولنفس الغرض لا يطيل هنا في مشهد الخروج والوقوف أمام البحر - كما يطيل في سور أخرى - بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة . لأن مقدماته كانت في الضمائر والقلوب .

وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله - بني إسرائيل - ليلا . فيضرب لهم طريقًا في البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل - فنعرضه نحن كذلك كما جاء - مطمئنا إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده , ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقًا يبسا فيه ! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قدرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه !

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى) . .

هكذا يجمال السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه , ولا يفصله , ليبقى وقعه في النفس شاملا مهولا ; لا يحدده التفصيل , وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر . وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار . .

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ما حدث في هذا الموضع , كي نتابع السياق في حكمة الإجمال . إنما نقف أمام العبرة التي يتركها المشهد وتسمع لإيقاعه في القلوب . .

لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئًا سوى اتباع الوحي والسري ليلا . ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين

في عالم الواقع . . موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة , وفرعون وجنده يملكون القوة كلها . فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا . هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة . ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها . بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ; لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده . . يقول الطغيان: (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل) فيقول الإيمان: (فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) . . عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية , وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان .

وعبرة أخرى:

إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واستنكاة وخوفا . فأما حين استعلن الإيمان , في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج , ودون اتقاء للتعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة . وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب . .

هذه هي العبرة التي يبرزها السياق بذلك الإجمال , وتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات . ليستيقن أصحاب الدعوات , ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض . والطغاة يملكون المال والجند والسلاح .

الدرس السابع: 80 - 92 تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم

وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير , كي لا ينسوا ولا يبطروا ; ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذي كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاة:

(يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ; وواعدناكم جانب الطور الأيمن , ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم , ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي , ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) . .

لقد جازوا منطقة الخطر , وانطلقوا ناجين ناحية الطور . وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى: وإنجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير . ولكنه إعلان التسجيل . والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها .

ومواعدهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر واقع ; وكانت مواعدة لموسى - عليه السلام - بعد خروجهم من مصر , أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهايا فيها للقاء ربه , ليسمع ما يوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشرعة , المنظمة لهذا الشعب الذي كتب له دورا يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر .

وتنزيل المن . وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر . والسلوى وهو طائر السمانى يساق إليهم في الصحراء , قريب المتناول سهل التناول , كان نعمة من الله ومظهرا

لعنايته بهم في الصحراء الجرداء . وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد .

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82) وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) وهو يذكرهم بهذه النعم ليأكلوا من الطيبات التي يسرها لهم ويحذرهم من الطغيان فيها . بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذي هم خارجون له , والتكليف الذي يعدهم ربهم لتلقيه . ويسميه طغيانا وهم قريبو العهد بالطغيان , ذاقوا منه ما ذاقوا , ورأوا من نهايته ما رأوا . (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي . ومن يحل عليه غضبي فقد هوى) . . ولقد هوى فرعون منذ قليل . هوى عن عرشه وهوى في الماء . . والهوى إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالي . والتعبير ينسق هذه المقابلات في اللفظ والظل على طريقة التناسق القرآنية الملحوظة .

هذا هو التحذير والإنذار للقوم المقدمين على المهمة التي من أجلها خرجوا ; كي لا تبطّرهم النعمة , ولا يترفوا فيها فيسترخوا . . وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطئ ويرجع:

(وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) . .

والتوبة ليست كلمة تقال , إنما هي عزيمة في القلب , يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح . ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع . فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان , وصدق العمل فهنا يأخذ الإنسان في الطريق , على هدى من الإيمان , وعلى ضمانته من العمل الصالح . فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل . .

وإلى هنا ينتهي مشهد النصر والتعقيب عليه . فيسدل الستار حتى يرفع على مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن . .

الدرس الثامن: 83 - 99 عبادة بني إسرائيل العجل وعقاب موسى للسامري

لقد واعد الله موسى - عليه السلام - على الجبل ميعادا ضربه له ليلقاه بعد أربعين يوما ; لتلقي التكاليف: تكاليف النصر بعد الهزيمة . وللنصر تكاليفه , وللعقيدة تكاليفها , ولا بد من تهيؤ نفسي واستعداد للتلقي .

وصعد موسى إلى الجبل , وترك قومه في أسفله , وترك عليهم هارون نائبا عنه . .

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه , والوقوف بين يديه , وقد ذاق حلاوتها من قبل , فهو إليها مشتاق عجول . ووقف في حضرة مولاه . وهو لا يعلم ما وراءه , ولا ما أحدث القوم بعده ; حين تركهم في أسفل الجبل .

وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه . . فلنشهد المشهد ولنسمع الحوار:

(وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال: هم أولاء على أثري , وعجلت إليك رب لترضى . قال: فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري).

وهكذا فوجيء موسى . . إنه عجلان إلى ربه , بعدما تهيأ واستعد أربعين يوما , ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة . وقد استخلصهم من الذل والاستعباد , ليصوغ منهم أمة ذات رسالة , وذات تكاليف .

ولكن الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها , والوفاء بالعهد والثبات عليه ; وترك في كيانهم النفسي خللة واستعدادا للانقياد والتقليد المريح . . فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختيار . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم

قَالَ فَإِنَّا قَدْ قَتَلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَصْلَلَهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَقَطَّالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)

النفسي . وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري:(قال:فإننا قد قتلنا قومك من بعدك , وأضلهم السامري)ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء , حتىلقى ربه , وتلقى الألواح وفي نسختها هدى , وبها الدستور التشريعي لبناء بني إسرائيل بناء يصلح للمهمة التي هم منتدبون لها .

وينتهي السياق موقف المناجاة هنا على عجل ويطويه , ليصور انفعال موسى - عليه السلام - مما علم من أمر الفتنة , ومسارعه بالعودة , وفي نفسه حزن وغضب , على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل الوثنية ; ومن عليهم بالرزق الميسر والرعاية الرحيمة في الصحراء ; وذكرهم منذ قليل بالآله , وحذرهم الضلال وعواقبه . ثم ها هم أولاء يتبعون أول ناعق إلى الوثنية , وإلى عبادة العجل !

ولم يذكر هنا ما أخبر الله به موسى من تفصيلات الفتنة , استعجالا في عرض موقف العودة إلى قومه . ولكن السياق يشي بهذه التفصيلات . فلقد عاد موسى غضبان أسفا يوبخ قومه ويؤنب أخاه . فلا بد أنه كان يعلم شناعة الفعلة التي أقدموا عليها:

(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا . قال:يا قوم:ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ? أقطال عليكم العهد ? أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي , قالوا:ما أخلفنا موعدك بملكنا , ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها , فكذلك ألقى السامري , فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار , فقالوا:هذا إلهكم وإله موسى فنسي , أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا , ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ? ولقد قال لهم هارون من قبل:يا قوم إنما فتنتم به , وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا:لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى !).

هذه هي الفتنة يكشف السياق عنها في مواجهة موسى بقومه ; وقد أخرج كشفها عن موقف المناجاة , واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقيق الذي يقوم به موسى . .

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون:هذا إلهكم وإله موسى . وقد نسي موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وره هنا حاضر !

فراح موسى يسألهم في حزن وغضب: (يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟) وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد ; ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت . ويؤنبهم في استنكار: (أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟) فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمدا , ويقصد إليه قصدا ! . . أفطال عليكم العهد ؟ أم تعمدتم حلول الغضب (فأخلفتكم موعدي) وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدي حتى أعود إليكم , لا تغيرون في عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمري ؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب , الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل , والتخلخل النفسي والسخف العقلي: (قالوا: ما أخلفنا موعدا بملكنا) فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا ! (ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها) . . وقد حملوا معهم أكدا سا من حلي المصريين كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن . فهم يشيرون إلى هذه الأحمال . ويقولون: لقد قذفناها تخلصا منها لأنها حرام . فأخذها السامري فصاغ منها عجلا . والسامري رجل من "سامراء" كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب . وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار , ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد - ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه - فما كادوا يرون عجلا من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَازٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَنَسِي (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِخِيتِي وَلَا يَرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ بَوَّأْتُ لِي نَفْسِي (96) قَالَ قَاذِهِ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)

من أرض الذل , وعكفوا على عجل الذهب ; وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا: (هذا إلهكم وإله موسى) راح يبحث عنه على الجبل , هو هنا معنا . وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه !

وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه , ويتوجيهه وإرشاده . اتهامهم له بأنه غير موصول بربه , حتى ليضل الطريق إليه , فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه !

ذلك فضلا على وضوح الخدعة: (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا , ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؟) والمقصود أنه حتى لم يكن عجلا حيا يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية ! فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية . وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرا ولا نفعا في أبسط صورة . فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية !

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون , وهو نبيهم كذلك , والنائب عن نبيهم المنقذ . ونبيهم إلى أن هذا ابتلاء . قال: (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن) ونصحهم باتباعه

وطاعته كما تواعدوا مع موسى ، وهو عائد إليهم بعد مياعده مع ربه على الجبل . . ولكنهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ، ومن عهدهم لنيهم بطاعته ، وقالوا: (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) . .

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ؛ فسمع منهم حجتهم التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل ، وأصاب تفكيرهم من فساد . فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب ، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة:

(قال: يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أف عصيت أمري ؟).

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل ، دون أن يطل عبادته ، اتباعا لأمر موسى - عليه السلام - ألا يحدث أمرا بعده ، ولا يسمح بإحداث أمر . ويستنكر عليه عدم تنفيذه ، فهل كان ذلك عصيانا لأمره ؟

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون . فهو يطلع أخاه عليه ؛ محاولا أن يهديه من غضبه ، باستجاشة عاطفة الرحم في نفسه:

قال: يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي . إني خشيت أن تقول: فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي . وهكذا نجد هارون أهدأ أعصابا وأملك لانفعاله من موسى ، فهو يلمس في مشاعره نقطة حساسة . ويجيء له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ؛ وانه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعا ، بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة هارون . وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا . فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى . .

عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها . إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ، لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم . فأما السامري فذنبه يجيء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغوا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني . فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك . ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا .

اتجه موسى إلى السامري !

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَجَفَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْنَانٍ إِنْ بَئِثُمْ إِلَّا نَجْا (103) تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشِّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ

ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَتْسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (119) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ قَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ قَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلُ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) أَقَلِمَ يَهُدٍ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) وَلَا تُهِنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرَقٌ مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَى (134)

(قال: فما خطبك يا سامري ؟) . . أي ما شأنك وما قصتك . وهذه الصيغة تشير إلى جسامة الأمر , وعظم الفعلة .

(قال: بصرت بما لم يبصروا به , فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها . وكذلك سولت لي نفسي) . .

وتتكاثر الروايات حول قول السامري هذا . فما هو الذي بصر به ؟ ومن هو الرسول الذي قبض قبضة من أثره فنبذها ؟ وما علاقة هذا بعجل الذهب الذي صنعه ؟ وما أثر هذه القبضة فيه ؟

والذي يتردد كثيرا في هذه الروايات أنه رأى جبريل - عليه السلام - وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض ; فقبض قبضة من تحت قدمه , أو من تحت حافر فرسه , فאלقاه على عجل الذهب , فكان له هذا الخوار . أو إنها هي التي أحالت كوم الذهب عجلا له خوار .

والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث , إنما هو يحكي قول السامري مجرد حكاية . . ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرا من السامري وتملصا من تبعة ما حدث . وأنه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم , وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت في فراغه فتحدث صوتا كالخوار . ثم قال حكاية أثر الرسول بيرر بها موقفه , ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول !

وعلى أية حال فقد أعلنه موسى - عليه السلام - بالطرد من جماعة بني إسرائيل . مدة حياته . ووكل أمره بعد ذلك إلى الله . وواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده . ليرى قومه بالدليل المادي أنه ليس إلهاً فهو لا يحمي صانعه , ولا يدفع عن نفسه:

(قال: فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول: لا مساس . وإن لك موعداً لن تخلفه . وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا , لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا) .

أذهب مطروداً لا يمسك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحداً - وكانت هذه إحدى العقوبات في ديانة موسى . عقوبة العزل , وإعلان الدنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحداً -

أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله . . وفي حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب , فيحرق وينسف ويلقى في الماء . والعنف إحدى سمات موسى - عليه السلام - وهو هنا غضبة لله ولدين الله , حيث يستحب العنف وتحسن الشدة .

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف , يعلن موسى - عليه السلام - حقيقة العقيدة .

(إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو . وسع كل شيء علماً).

وينتهي بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى في هذه السورة . تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده . حتى عندما يتلون فيخطئون . ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا , لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بني إسرائيل بما يرتكبون من أثم وفساد وطغيان . وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين . فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل .

الوحدة الثانية: 99 - 135 الموضوع: من مشاهد القيامة وقصة آدم مواساة الرسول عليه السلام مقدمة الوحدة

بدأت السورة بالحديث عن القرآن , وأنه لم ينزل على الرسول [ص] ليشقى به أو بسببه . ومن القرآن قصة موسى - عليه السلام - وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه .

فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته , وعاقبة من يعرض عنه . ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة , تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ; وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى , وتخشع الأصوات للرحمن , وتغنو الوجوه للحي القيوم . لعل هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس , ويذكرها بالله ويصلها به . . وينتهي هذا المقطع بإراحة بال الرسول [ص] من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه , فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه , ولا يشقى بذلك فالله ميسره وحافظه . إنما يطلب من ربه أن يزيده علماً .

وبمناسبة حرص الرسول [ص] على أن يردد ما يوحي إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان , يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله . وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس , وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملاء الأعلى , ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى .

وتختم السورة بتسليية الرسول [ص] عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم , فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع في الحياة الدنيا فهو فتنة لهم . وينصرف إلى عبادَةِ الله وذكره فترضي نفسه وتطمئن . ولقد هلكت القرون من قبلهم , وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير , فلينفذ يده من أمرهم ويكلهم إلى مصيرهم .

قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)

(قل: كل متربص فتربصوا , فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) .

الدرس الأول: 99 - 114 من مشاهد القيامة وطبيعة هذا القرآن

كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق , وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه , وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون: إذ يقول أمثلهم طريقة: إن لبثتم إلا يوما . .

كذلك القصص الذي أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق . نقصه عليك في القرآن - ويسمى القرآن ذكرا , فهو ذكر لله ولآياته , وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى .

وبرسم للمعرضين عن هذا الذكر - ويسميه المجرمين - مشهدا في يوم القيامة . فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله . ويا لسوءها من أحوال ! فإذا نفخ في البوق للجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث , لا يرفعون به صوتا من الرعب والهول , ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيهم يتخافتون ؟ إنهم يحسدون عما قضوا على الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم , وقصرت أيامها في مشاعرهم , فليست في حسهم سوى أيام قلائل: (إن لبثتم إلا عشرا) فأما أرشدهم وأصوبهم رأيا فيحسونها أقصر وأقصر: (إن لبثتم إلا يوما) . وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي ; ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ; ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان , وشيئا ضئيلا في القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة . ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لا نهاية لها , والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟!

وبزيد مشهد الهول برورا , بالعودة إلى سؤال لهم يسألونه في الدنيا عن الجبال ما يكون من شأنها يومذاك . فإذا الجواب يصور درجة الهول الذي يواجهونه !

وبسألونك عن الجبال فقل: ينسفها ربي نسفا , فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا . يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له , وخشعت الأصوات للرحمن , فلا تسمع إلا همسا . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحي القيوم , وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . .

ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفا ; وإذا هي قاع بعد ارتفاع . قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج , فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض . .

وكأنما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ; وتنصت الجموع المحشودة المحشورة , وتخفت كل حركة وكل نامة , ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين , لا يتلفتون ولا يتخلفون - وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون - ويعبر عن استسلامهم بأنهم (يتبعون الداعي لا عوج له)تنسيقا لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء !

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر: (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا). . (وعنت الوجوه للحي القيوم). .

وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله , وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع . فالكلام همس . والسؤال تخافت . والخشوع ضاف . والوجوه عانية . وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلالالرزين . ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله . والعلم كله لله . وهم لا يحيطون به علما . والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة . والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلما في الحساب ولا هضما لما عملوا من صالحات . إنه الجلال , يغمر الجو كله ويغشاه , في حضرة الرحمن .

(وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا).
كذلك على هذا النسق نوعنا في القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده لعله يستجيش في نفوس المكذبين شعور التقوى , أو يذكرهم بما سيلقون في الآخرة فينزعجوا . . فذلك إذ يقول الله في أول السورة .(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى). .

ولقد كان الرسول [ص] يلاحق الوحي فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهي الوحي مخافة أن ينسى . وكان ذلك يشق عليه . فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التي يحملها .

(فتعالى الله الملك الحق . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه . وقل:رب زدني علما). .

فتعالى الله الملك الحق الذي تعنو له الوجوه ; ويخيب في حضرته الظالمون ويأمن في ظله المؤمنون الصالحون . . هو منزل هذا القرآن من عليائه , فلا يعجل به لسانك , فقد نزل القرآن لحكمة , ولن يضيعه . إنما عليك أن تدعوك ليزيدك من العلم , وأنت مطمئن إلى ما يعطيك , لا تخشى عليه الذهاب . وما العلم إلا ما يعلمه الله فهو الباقي الذي ينفع ولا يضيع . ويثمر ولا يخيب .

الدرس الثاني:115 - 127 قصة آدم وتعقيب عليها

ثم تجيء قصة آدم , وقد نسي ما عهد الله به إليه ; وضعف أمام الإغراء بالخلود , فاستمع لوسوسة الشيطان:وكان هذا ابتلاء من ربه له قبل أن يعهد إليه بخلافة الأرض ; ونموذجا من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة . فلما تم الابتلاء تداركت آدم رحمة الله فاجتباها وهداه . .

والقصص القرآني يحيي في السياق متناسقا معه . وقصة آدم هنا تجيء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان , فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان . وتجيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده , فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباها فتاب عليه وهداه . ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة . وكأنما هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه .

فلنتبع القصة كما جاءت في السياق:

(ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما). .

وعهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة , تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة , وتأکید الشخصية , والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ; فلا تستعبد الرغائب وتقهرها . وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري . فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري . وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى .

من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته , وتنبيه قوة المقاومة فيه , وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان , وإرادته وعهده للرحمن . وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتائجها الأولى: (فنسي ولم نجد له عزما) ثم تعرض تفصيلاتها:

(وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى). .

هكذا في إجمال , يجيء هذا المشهد الذي يفصل في سور أخرى , لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية . . فيعجل بمظاهر النعمة في الرعاية:

(فقلنا: يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك , فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى , إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى , وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى). .

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره , عقب نشوره وعصيانه , والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه . (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فالشقاء بالكد والعمل والشرو والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان . . كلها تنتظر هناك خارج الجنة ; وأنت في حمي منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس . . (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى). . فهذا كله مضمون لك ما دمت في رحابها , والجوع والعري , يتقابلان مع الظمأ والضحو . وهي في مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولى في الحصول على الطعام والكساء , والشراب والظلال .

ولكن آدم كان غفلا من التجارب . وهو يحمل الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبة في السلطان . ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان:

(فوسوس إليه الشيطان قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ?)

لقد لمس في نفسه الموضع الحساس , فالعمر البشري محدود , والقوة البشرية محدودة . من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل , ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان , وأدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر , لأمر مقدور وحكمة مخبوءة . . ومن ثم نسي العهد , وأقدم على المحذور:

(فأكلا منها فبدت لهما سواتهما , وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . . وعصى آدم ربه فغوى) . .

والظاهر أنها السوءات الحسية تبتد لهما وكانت عنهما مستورة , وأنها مواضع العفة في جسديهما . يرجح ذلك أنهما أخذتا يستترانهما بورق الجنة يشبكانه ليستتر هذه المواضع . وقد يكون ذلك إيذانا باستيقاظ الدوافع الجنسية في كيانهما . فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحس الإنسان بالخلل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخل من كشفها .

وربما كان حظر هذه الشجرة عليهما , لأن ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع في الجسم تأجيلا لها فترة من الزمان كما يشاء الله . وربما كان نسيانها عهد الله وعصيانها له تبعه هبوط في عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبت فيهما دوافع الجنس . وربما كانت الرغبة في الخلود تجسمت في استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل ; فهذه هي الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردي المحدود . . كل هذه فروض لتفسير مصاحبة ظهور سواتهما لهما للأكل من الشجرة . فهو لم يقل: فبتد سواتهما . إنما قال: فبتد لهما سواتهما . مما يؤذن أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلي من إحساسهما . . وقد جاء في موضع آخر عن إبليس: (ليدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما), وجاء (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما) وقد يكون اللباس الذي نزع الشيطان ليس لباسا ماديا إنما هو شعور ساتر , قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله . وعلى أية حال فهي مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدناها ولا نرجح واحدا منها . إنما هي لتقرب صورة التجربة الأولى في حياة البشرية .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله , بعدما عصاه , فقد كانت هذه هي التجربة الأولى:
(ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي) . .

بعدما استغفر آدم وندم واعتذر . ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله في الجو وحدها . .
ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى:

(قال: اهبطا منها جميعا , بعضكم لبعض عدو) . .

وبذلك أعلنت الخصومة في الثقلين . فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدري . فقد درى وعلم ; وأعلن هذا الأمر العلوي في الوجود كله: (بعضكم لبعض عدو)!

ومع هذا الإعلان الذي دوت به السماوات والأرضون , وشهده الملائكة أجمعون . شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى . قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم .

فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس , أنه آتيهم بهدى منه , فمجاز كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى:

(فإما يأتينكم مني هدى , فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا , ونحشره يوم القيامة أعمى . قال: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ? قال:: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه , ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) . .

يجيء هذا المشهد بعد القصة كأنه جزء منها , فقد أعلن عنه في ختامها في الملأ الأعلى . فذلك أمر إذن قضى فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل .

(فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) . . فهو في أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله . وهما ينتظران خارج عتبات الجنة . ولكن الله يقى منهما من اتبع هدايه . والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقا في المتاع . فهذا المتاع ذاته شقوة . شقوة في الدنيا وشفوة في الآخرة . وما من متاع حرام , إلا وله غصة تعقبه وعقاييل تتبعه . وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه . والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع ! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء . ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض , وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود , حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود .

(ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا) والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة , ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع . إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه . ضنك الحيرة والقلق والشك . ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت . ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت . وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله . وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها . . إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة , والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان .

(ومن أعرض عن ذكري) وانقطع عن الاتصال بي (فإن له معيشة ضنكا) . . (ونحشره يوم القيامة أعمى) . . وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا . وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى . حتيا إذا سال: (رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ?) كان الجواب: (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)!

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه . أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفـس ثراء وذخر , وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئا . فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ! وبحشر في يوم القيامة أعمى !

اتساق في التعبير . واتساق في التصوير . . هبوط من الجنة وشقاء وضلال , يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال . وفسحة في الحياة يقابلها الضنك , وهداية يقابلها العمى . . ويجيء هذا تعقيبا على قصة آدم - وهي قصة البشرية جميعا - فيبدأ الاستعراض في الجنة , وينتهي في الجنة , كما مر في سورة الأعراف , مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق . .

الدرس الثالث: 128 - 129 لفت الأنظار إلى مصارع السابقين

فإذا انتهت هذه الجولة بطرفها أخذ السياق في جولة حول مصارع الغابرين ; وهي أقرب في الزمان من القيامة , وهي واقع تشهده العيون إن كانت القيامة غيبا لا تراه الأبصار:

أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ? إن في ذلك لآيات لأولي النهي . ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى . .

وحين تجول العين والقلب في مصارع القرون . وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كتب , وحين يتملى الخيال الدور وقد خلت من أهلها الأول ; ويتصور شخوصهم الذاهبة , وأشباحهم الهاربة , وحركاتهم وسكناتهم , وخواطرهم وأحلامهم , وهمومهم وآمالهم . . حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر . . ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئا إلا الفراغ والخواء . . عندئذ يستيقظ للهوة التي تغمرها فتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر . وعندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها . وعندئذ يعي معنى الإنذار , والعبرة أمامه معروضة للأنظار . فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفي مصارع القرون ما يهدي أولي الأبواب ? : (إن في ذلك لآيات لأولي النهي)!

ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا , لحكمة عليا . لحل بهم ما حل بالقرون الأولى . ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى أمهلهم إليه: (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما , وأجل مسمى).

الدرس الرابع: 130 - 132 زاد الطريق في الصلاة والذكر والتسبيح

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل , مهملين لا مهملين , فلا عليك - يا محمد - منهم ولا مما أوتوه من زينة الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم , فإنما هي الفتنه , وما أعطاكه الله إنعاما فهو خير مما أعطاهم ابتلاء:

فاصبر على ما يقولون , وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها , ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى . ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لتفتنهم فيه , ورزق ربك خير وأبقى . وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى . .

فاصبر على ما يقولون من كفر واستهزاء وجحود وإعراض , ولا يضق صدرك بهم , ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . واتجه إلى ربك . سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . في هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ; وفي هدأة الغروب والشمس تودع , والكون يغمض أجفانه , وسبح بحمده فترات من الليل والنهار . . كن موصولا بالله على مدار اليوم . . (لعلك ترضى) . .

إن التسبيح بالله اتصال . والنفس التي تتصل تطمئن وترضى . ترضى وهي في ذلك الجوار الرضي ; وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن .

فالرضى ثمرة التسبيح والعبادة , وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويتدرع في حنايا القلب .

اتجه إلى ربك بالعبادة (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم) من عرض الحياة الدنيا , من زينة ومتاع ومال وأولاد وجاه وسلطان . (زهرة الحياة الدنيا) التي تطلعها كما يطلع النبات زهرته لامعة جذابة . والزهرة سريعة الذبول على ما بها من رواء وزواق . فإنما نمتعهم بها ابتلاء (لنفتنهم فيه) فنكشف عن معادتهم , بسلوكهم مع هذه النعمة وذلك المتاع . وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل (ورزق ربك خير وأبقى) وهو رزق للنعمة لا للفتنة . رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن .

وما هي دعوة للزهد في طيبات الحياة , ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به . فلا تنهاوى النفوس أمام زينة الثراء , ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا , وتبقى دائماً تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار . .

(وأمر أهلك بالصلاة). . فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ; وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله , فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة . وما أروح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله .

(واصطبر عليها). . على إقامتها كاملة ; وعلى تحقيق آثارها . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . وهذه هي آثارها الصحيحة . وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك . وإلا فما هي صلاة مقامة . إنما هي حركات وكلمات .

هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هي تكاليفك والله لا ينال منها شيئاً . فالله غني عنك وعن عبادة العباد: (لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى (والعاقبة للتقوى). فالإنسان هو الراجح بالعبادة في دنياه وأخراه . يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح . ويعبد فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى . والله غني عن العالمين .

الدرس الخامس: 133 - 135 تفنيد طلبات الكفار في تبديل القرآن وتهديدهم

وقرب ختام السورة يعود بالحديث إلى أولئك الكبراء الممتعين المكذبين , الذين يطلبون إلى الرسول [ص] بعدما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه: هذا القرآن الذي يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله:

(وقالوا: لولا يأتينا بآية من ربه . أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ؟) .

فليس إلا التعنت وإلا المكابرة والرغبة في الاقتراح هي التي تملي مثل هذا الاقتراح وإلا فآية القرآن كافية . وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها , ويوحد طبيعتها واتجاهها , ويبين ويفصل ما أجمل في الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم المرسلين [ص]

(ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا , فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى). .

وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم . إنما هو تصوير لمصيرهم المحتوم . الذي يذلون فيه ويخزون: فلعلهم حينذاك قائلون: أرسلت إلينا رسولا . . .) . فما هي ذل الحجة قد قطعت عليهم , فلم يعد لهم من عذر ولا عذير !

وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذي ينتظرهم يؤمر الرسول [ص] أن ينفذ يده منهم , فلا يشقى بهم , ولا يكرهه عدم إيمانهم , وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير , فليتربصوا هم كيف يشاءون:

(قل: كل متربص فتربصوا . فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) .

بذلك تختم السورة التي بدأت بنفي إرادة الشقاء عن النبي [ص] من تنزيل القرآن , وحددت وظيفة القرآن: (إلا تذكرة لمن يخشى) . والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق . فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة . وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة . والعاقبة بيد الله . .

انتهى الجزء السادس عشر و يليه الجزء السابع عشر

مبدوءاً بسورة الإنبياء